

الأحد 10-02-2008

163- ... من الموت والجنون والإبادة

مقدمة

وصلتني تساؤلات أساسية، وتساؤلات فرعية ضمن بريد الجمعة الماضى **يومية 8-2-2008 (حوار/بريد الجمعة)**، وقبله، عن مسألة الموت عموماً، وعن الأموات الأحياء خصوصاً، ثم عن الموت والغصام بشكل أكثر تحديداً، وقد وعدت أن أفرد لها نشرة اليوم.

كثير من التساؤلات تطلب إيضاحات حول تعبير أن "الموت: **وعى بين الوعين**"، وربما هذا بعض ما جاء أصلاً في **يومية "المصادقية بالاتفاق" 12-11-2007** حيث شرحت كيف أنه وصلنى مؤخراً أن الموت هو نقلة من الوعى الشخصى إلى الوعى الكونى **توجهاً إلى وجه الحق سبحانه وتعالى**، وكيف أنى بعد أن وصلنى هذا الاحتمال هدانى صديق (حافظ عزيز) إلى أن مثل هذه الرؤية جاءت فى متون هرمز.

رحت أراجع ما جاء بهذه اليوميات فوجدت أن مسألة الموت تكررت بشكل متواتر فتساءلت: ترى لماذا؟ ورأيت أن أقترح على المتداخلين أن يرجعوا إلى **أرشيف اليوميات منذ صدرت**، وسوف يجدون عدداً كبيراً من اليوميات تدور حول هذا الموضوع بما يعطينا من التكرار.

شعرت أن كثرة هذه التساؤلات وراءها نوع من الخرج الدينى، وهذا جيد ومقبول، وعلينا أن نعيشه ونتحمل مسؤوليته.

فنبداً أولاً بـ:

عن اللغة والمنهج وتوظيف الإبداع

من خلال مراجعتى لفرط تساؤل المتداخلين عن قضية الموت، وبالذات كيف أنه **وعى بين الوعين**، تصورت أن وراء تلك المسألة نوعاً من الخرج الدينى المشروع، وقد تخرجت بدورى أن أرد أو أوضح بما قد يستدرجنى أن أعرى جهلى أكثر، مع أننى فخور به وأشعر أنه له فضل أنه يعيننى على مثل هذه المعرفة معظم الوقت.

أتصور أن تعرفي - وتعرفنا - على مثل هذه القضايا الجوهرية يتم بشكل أرحب من خلال شجاعة المبدعين في الأدب خاصة، وأيضا من خلال تعري المجانين الطيبين الفصامين خاصة،

لا أجد حرجا حين تصلني هذه الإشراقات من المبدع وهو يتجاوز ما نستطيع، أو من الخنون وهو يعري ما تخاف منه.
 الحرج الذي نجده ونحن نقرأ النص الإبداعي الأدبي مثلا، وأيضا ونحن نقرأ النص البشري وقد تفسخ، هو أقل بكثير من الحرج الذي قد يشلنا ونحن ننظر في هذه المسائل المخطورة، بمنطق **"إثبت لي، واثبت لك"**، مع أن الله سبحانه لم يخلقنا ليحظر علينا أن نسعى إليه بكل ما نملك من كدح واجتهاد، فهو سبحانه لم يعين الأوصياء على وعينا، وإنما هو أوصاهم أن يجتهدوا من كل حسب كدحه، وسيثيبهم على ذلك بقدر توفيقهم وأخطائهم أيضا، أليسوا بشرا؟ وهم من حقهم أن يتروأوا منا أمام خالقنا إذا نحن عزونا كسلنا العقلي إلى الاستسلام إلى اجتهاداتهم البشرية، أما النص الإلهي فهو النص الإلهي لا يمكن أن يتعارض مع ما خلقه الله لنا من فطرة في سعي دائم إليه سبحانه.

وأنا أبحث عن ردود بشكل غير مباشر لهذه التساؤلات وجدت أنني فعلتها في أعمال نقدية كثيرة، لعل أوفاهما وأسهلها هو ما جاء في نقدي للحملة الخرافيش لنجيب محفوظ خصوصا من (ص 94 إلى ص 110) **"قراءات في نجيب محفوظ"**

وحين أردت أن أقدم للقارئ العادي في صحيفة أسبوعية (الدستور)

هذه الوصلة بين الموت والحياة، وكيف أنها

نقطة غير واضحة المعالم، مع أنها طبيعية وواضحة المعالم،

صغت ذلك كأحد حلقات كنت أقدمها في الشكل المسمى "القصة المقال": **"عن الموت والفقد والقتل والحياة" بتاريخ 30-5-2008** هكذا:

قالت البنت لأمها:

لماذا كل هذا الجزع، أنت مؤمنة يا أمي، وقد استرد الله وديعته.

قالت الأم:

دعيني الآن يا حبيبي، أنت لا تعرفين معنى الثكل،

قالت البنت:

بل أعرفه، هو أخي وأبي وإبني وحبيبي أيضا، أنا أخاف عليك، ربما كانت المسألة ليست كما تتصورين، ربما لها وجه آخر،

قالت الأم:

أي وجه وأي آخر وأي تصور؟ إيش عرفك أنت بما أنا فيه! وهل هناك تصور بعد الذي جرى؟؟ لقد صرت أكره اللون الأبيض ورائحة الخشب وشكل التراب!! أنت لا تعرفين ما بي. حين تتزوجين،

لا...، حين تحملين،..لا..، حين يتحرك في وجدانك شوق غامض أن تجدى الحياة عبر خلاياك، ثم تحتوينه تسعة أشهر، ثم تطلقين سراحه وأنت مترددة لا تصدقين، ثم ترضعينه أو لا ترضعينه، ثم ترينه أمامك رائجا غاديا ليس هو، لكنه هو هو. حين يقتحم عليك حجرتك دون استئذان فتطردينه ليقفز قلبك وراءه محتسنا حتى بعد أن يغلق الباب معتذرا، حين يتكلم فلا تفهمين ما يقوله لكنك تفهمينه، حين تدعين عليه وقلبك يقول "بعيد الشر"، حين تعيشين كل ذلك، سوف تعرفين ما أنا فيه .

قالت البنت:

يا خيرا!! أنا أحبك يا أمي، ..أنا أريد أن أقول لك...، يعنى...، أصل...، أقصد أننا صحيح فقدناه، لم يعد قائما بيننا، لكن المسألة ليست كذلك بالضبط...لكن، آسفة،

قالت الأم:

ماذا بك يا ابنتي، أية مسألة، وأي ضبط، ماذا بك!!

قالت البنت:

الفقد غير الموت يا أمي، الفقد غياب، لكن، الموت شيء آخر،

قالت الأم:

ماذا تقولين؟

قالت البنت:

آسفة، أعذريني يا أمي، لم أقصد، آسفة، لاشيء .

- 2 -

قالت البنت لأخيها:

لماذا لم تقل لأمتنا أنك لم تمت، وأن كل الحكاية أنك هناك، ونحن هنا؟

قال أخوها:

هي لن تصدق، ولا حتى أنت، قالت: كيف وأنت تكلمنى الآن كما كنت دائما،

قال:

ليس كما كنت بالضبط، أنا أخشى أن أحكى -حتى لك- فلا تصدقيني،

قالت:

حك ولا يهملك، إحك وان شالله ما صدقت:

قال:

لم أتبين في أول الأمر إن كان سحابا أم ضبابا أم سرايا، كما لم أستطع أن أعرف ماذا ولا كيف صرت: لونا أو هواءً أو حضورا نورانيا محدد المعالم بقدر ما هو غامض، المهم أنى صرت أحتمل تلك الخفة الرائعة بعد أن فقدت الأرض جاذبيتها تسجنى إليها، اكتشفت بيقين أنه لا يوجد شيء اسمه الموت، رأيت أمي وهى تتألم مفجوعة لفقدى، حاولت أن أناديها لأطمئنها أننى لم أمت، لم تسمع. لحت بجوارى قطة سوداء، ومر

أمامي ثعبان عملاق طيب، نظر إلى جنان مزعج، وطارت حول أوراق جافة اخلعت من شجرة عجوز، وقبل أن تختفى استطعت أن أقرأ ما سطر عليها، وتبينت أنها عناصر رواية تستغرق ألف ألف عام، وحلق فوقى طائر جميل لم أتبين أنه نورس إلا وأنا أحد جناحيه، وقفز نمر من فوق سور حديقة الحيوان بالجيزة يهتف للحرية، ولم يقبل أي من هؤلاء أن يبلغ أمي أن الفقد غير الموت، وأن الحياة لا تنتهي بالاختفاء.

قالت البنت لأخيها مقاطعة:

كم الساعة الآن؟

قال:

لم تعد عندنا حاجة إلى ساعة،

قالت:

كأن أسمع أذان الفجر، الغطاء يتسحب من عليّ، لابد أن أنفض، المعهد!! عن إذتك.

-3-

قالت الأم للبنت:

إذهبي وأيقظي أخاك، اليوم الثلاثاء، ومحاضراته تبدأ في الأمانة،

قالت البنت:

حاضر، لكن هل أنت متأكدة أنه نائم في حجرته؟

قالت الأم:

طبعاً، أين ينام إن لم يكن في حجرته؟ في الشارع؟

قالت البنت:

فما حكاية الموت هذه؟

قالت الأم:

أى موت؟

قالت الفتاة بسرعة:

موت الناس في العراق وفي فلسطين وفي العبارة، وفي أقسام البوليس.

قالت الأم:

ماذا جرى لك، نحن في ماذا أم ماذا!! أيقظي أخاك بسرعة، ستفوته أول محاضرة،

قالت البنت:

طيب والقتلة؟

قالت الأم:

قتلة من؟

قالت البنت:

قتلة الحياة.

قالت الأم:

وهل يستطيع أحد أن يقتل الحياة إلا أن يبدأ بنفسه، وسوف يجد أنه عاجز عن فعل أى شيء، وتستمر الحياة بالرغم من ميته الغبية، ومحاولته المجهضة؟

قالت البنت:

يا خير، ماذا تقولين يا أمي؟ هل أنت أنت؟ كيف قلت كل ذلك؟

قالت:

إيش عرفني!! هي جاءت هكذا وخلص.

-4-

قال الشاب لأمه:

لماذا لم توقظيني يا أمي كما طلبت منك أمس؟

قالت أمه:

أختك يا سيدى أدخلتني في متاهات وهى تحكى لى أضغاث تخاريفها، بصراحة: أنا خائفة على عقلها.

ثم نخرج ثانيا إلى تساؤلات د. أميمة رفعت

صاحبة الفضل في فتح هذا الملف

يومية 24-1-2008 (الأحياء الأموات)

(1) وماذا عن الموت\ في\ " مرضى الفصام، و لا اقول\ عند\ " مرضى الفصام؟ أى عندما يشعر المريض بالموت في داخله، ويترجم ما عنده بطرق عدة، مثلا: مريضة تشعر ان ذراعها ميت، وعند سؤالها و لكنك تحركينه؟ \ " أبوه بس هو ميت\ و أحيانا تجيب بترتيب عجيب \ " هو اتشل و بعدين مات وبعدين عفن\"

• أولا قولك تحديدا أنه " الموت\ في\ " مرضى الفصام، و لا اقول\ " عند\ " مرضى الفصام" ، ينبهنا تحديدا أننا نتحدث عن شعور الفصامى في داخله بما يسميه موتا، وليس بالضرورة أنه يتحدث عن الموت الذى نعرفه (الموت الفقد ، أو الموت الدفن..إلخ) أقصد أنه ليس بالضرورة يعنى الموت كما نشيع عنه ويتصوره أغلبنا.

ثم إن المسألة تختلف من مريض لمريض، فواحد يعلن بكلمة الموت عن ما بلغه من داخل داخله عن جهود حركة نموه

و آخر يعلن تناثر واحديته (لم يعد واحدا)، حتى الشلل،

والمريض الفصامى بالذات يطلع على داخله بشكل أكثر شجاعة و يقينا، لكنه يستعمل لوصفه لغته الخاصة، وعادة ما اكتشف أن كلمة الموت التى يصف بها المريض الفصامى داخله ليست هى التى يستعملها فصامى آخر لهدف آخر بمعنى آخر، ولا هى التى نطلقها على الموت الفقد أو حتى الموت الوعى الآخر إلخ..

في تصوري أن هذه المريضة **تقمصت ذراعها** ، فأصبحت هي هو ، ثم وصفته بالموت، فهي قد **أحلت الجزء محل الكل** بصديق ذهاني جيد، ثم إنها راحت ترصد ما جرى لها طورا طورا: "**إتشل**" و"**بعدين مات**" و"**بعدين عفن**"، ولعلك يا أميمة تعرفين هذه الأطوار في تدهور الفصامي:

• حين يعاق عن الفاعلية والمبادأة بشلل الإرادة والتبلد،
• ثم تضرر قدراته جميعا وخاصة المعرفية منها نتيجة عدم الاستعمال وانعدام التواصل، وهو ما يقال عنه أحيانا "**الأعراض السلبية**"،

• ثم هو يتفسخ فيتخثر (يعفن) ليتناثر (**هذيان هذر هذاءة: موشك السقطة ذو لب نثر**) .

(2) مريضة أخرى فقدت الحدود بين ذاتها و بين الأشياء و الأشخاص حولها ففى\جوفها\ المكتب، و الحكيمه، و زميلتها في الغرفة... إلخ... و جثت أقاربها، و جثت المشاهير القدامى من مثلين وغيرهم ، بل أن بعض هذه الجثت تفرض نفسها عليها كل ليلة لتتمدد بجانبها بالفراش و أحيانا تخاطبها....

ليس من رأي أن "فقد حدود الذات" هو مكافئ للموت، ولا هو خاص بالفصام، كما في الحالة الأولى، فمن ناحية هو مرتبط بأعراض المرتبة الأولى لشنايدر Schneider's First Rank Symptoms ، وهي مرحلة باكرة تماما وتشير إلى تكهن prognosis جيد للمآل outcome نسبيا، وقد تحدث في الاضطرابات الوجدانية، (أنظر بعد) وحينذاك يصبح إدخال العالم الخارجي إلى الداخل وبالعكس دليلا على حركية نشطة (وإن كانت سلبية في النهاية) أكثر منه دليلا على الموت الجمود (فالتخثر فالعفن) ،

أما أن يكون المدخل جثا أو مشاهير أو ممرضات أو أشياء، فهذا قد يشير إلى بصره المريض أن المعلومات (الموضوعات) سواء أتت من الواقع الداخلي - (الذاكرة - المشاهير) ، أو الخارجي (الممرضات) ، لا تُتمثل metabolized في واحدة الذات أولا بأول، فتظل ساكنة منفصلة كالجسم الغريب، حتى لو كان ما تصفه المريضة هو جث، فهي ليست جث الموتى بالضرورة، لكنها تصلى عادة على أنها **جث نازك الموضوعات المنفصلة**،

بل إن عندي فرض أكثر جرأة أقترحه كما يلي:

إن هذه المريضة (مثل كثير من الفصامين) ترى الأحياء العاديين المغتربين جثا لا تحرك، وهي إذ ترفض ذلك فتغامر باخرقة ضد هذا **التصميم** العام، دون استعداد أو إعداد، تفقد أبعاد ذاتها، فتروح تستقبلنا - في أغوارها- نحن كالجث كما وصفت، ثم إنها تعجز بعد ذلك عن توجيه حركتها إلى إعادة تشكيل ذاتها، بعكس ما هو نحن الذين رفضتهم، **تشكيلها في واحية جديدة أفضل منا، فتجهض حركيتها إلى الشلل فالموت الجمود فالعفن.**

أما إدخالها المشاهير (مع الأحياء) إلى داخلها ثم إسقاطهم مجوارها على السرير في صورة هلوسات مجسدة ، فربما يؤكد أن البداية هي كما ذكرنا حالا، كانت توجُّها نحو اختراق إلى أعلى Break Through، اقتداءً بالمشاهير، انتهى بها إلى الفشل .. وإالتدهور إلى أسفل Break Down إلخ .

(3) لماذا يتكرر موضوع theme الموت دائما عند مريض الفصام؟ ولماذا لا يشعر ناحيته بشيء ، لا حزن ولا خوف ولا تمرد...لا شيء. المريضة في المثال الأخير كانت في إستسلام تام لمضايقات الموتى، و لم تبد أية مشاعر إلا قرب "\شائها\"...خوف أولا ثم امتعاض ثم ثورة عليهم....

أظن أن التبلد تجاه مثل هذه التيمات التي تخيفنا نحن الأسوياء ، قد يكون جزءا من تبلد مشاعر الفصامي بصفة عامة، فكما أن الفصامي هو متبلد -عادة- تجاه العالم الخارجى، فهو أيضا قد يكون متبلدا تجاه عالمه الداخلى، الاحتمال الآخر هو أن تكون الألفاظ التي يستعملها الفصامي (مثل لفظى الموت أو الجثث .. إلخ) تعنى عنده معان أخرى غير التي تعنيها للشخص العادى مثلك ومثلى، وبالتالي فهي لا تخيفه أصلا.

أما أن هذه المريضة قد أصبحت تبدي مشاعر الخوف فالامتعاض عند الشفاء، فهذه مرحلة نعتبرها عادة جيدة، (ألم تصبح مثلنا!!) لكننى لا أخفى عليك أننى في العلاج الجمعى خاصة أرفض الإسراع بالفرحة بمثل هذه النتيجة، وأحاول تأجيل التخلص من هذا العالم الداخلى الذى تحرك خطأ، لعله يجد فرصة ما ليتحرك في الاتجاه الصحيح، في نقلة نمو جديدة ما أمكن ذلك،

أما إن لم توجد مثل هذه الفرصة، فالحمد لله على سلامتها على أية حال.

(4) هل يشعر مريض الفصام بجموده في حين لا يشعر كثيرون بمن "\ليسوا مرضى\" بجمودهم و توقف تطورهم في الحياة؟ كيف؟ بعيدا عن تسمية الأعراض symptomatology، لا أفهم تماما أين يكمن الموت في الأحياء.

لعلك تقصدين أين يكمن الموت في العاديين لا الأحياء، ولا حتى الأسوياء .

حين كتبت عن الأحياء الموتى - حتى هنا في اليومية- كنت أقصد ذلك الاغتراب المتمادى الذى يجمد حركية النمو حتى تغلق دائرته فلا تمارس إلا التكرار فنعيش بالقصور الذاتى، هذا الوجود الكمى المفتقر إلى كل من المرض والإبداع معاً، إبداع الذات أولا وليس أخيراً، هو الذى يجعلنا نطمس الوعى بالموت حاضرا، ونهاية.

أعتقد أن الفصامي قد يلتقط جمودنا هذا أولا، وهو في محاولته أن يتحرك بعيدا عنه، دون استعداد أو إعداد كما

أسلفنا، يفعلها بعشوائية خائبة، مما ينتهي به إلى جمود أبشع مما رفضه، فيرصد هذا المأل السلي ساكنا جامدا في داخله، فيسميه موتا ويعلنه،

نقطة أخيرة: أتصور أن البعض قد يتصور أن وصف الفصامى لداخله بهذه الدقة، وإن كان بلغة خاصة، هو نوع من البصيرة النافذة، وأحب أن أن أنبه أن هذا ليس صحيحا تماما، فهي بصيرة نعم، لكنها بصيرة مشلولة، وأحيانا مُشلة.

ختم ثالثا بما يلي:

كنت أود أن أعرض لمسألة فقد أبعاد الذات، من خلال حالتين ألهمان قصيدتين، كانت كليهما أقرب إلى الاضطراب الوجداني منهما إلى الفصام، لكن الموضوع طال اليوم، فإلى غد مكتفيا الآن بقطع من كل قصيدة

أولا: نهاية القصيدة الأولى: (ملهى العرى)

"... تقتحم كيان ذرات الدنيا دون استئذان.

تتكلم مني أحشائي والأعضاء وأطياف الذات،

تتقاذفني الكلمات..."

ثانيا: مقتطفات من القصيدة الثانية (الريح والأحزان)

ماذا وجدوا في الداخل بعد تمام الجرد؟

الطفلة تحبو؟

جثة أم تتكلم؟

وعصا عمياء؟

ومضارب مكسورة؟

وبقايا علبة سردين مفتوحة

فيها قول مأثور يرجع أصل الإنسان

للسمك المحفوظ بعلبة ليل؟

ماذا في الداخل يستأهل دس الأنف؟

رجل عنين يتدل منه العجز؟

حبل شقق الآخر بالحكم الفوقي؟

آثار الخضره؟

ورياح حماسين الفكرة

وجه متآكل؟

وبقايا عين؟

وشطائر مخ وحوايا قلب؟